

الفصل الثاني

نجيب الحداد في عصره

١- لقب الشيخ والحداد

نجيب الحداد هو ابن سليمان الحداد وحنة اليازجي ابنة الشيخ ناصيف اليازجي العلامة المشهور. وأهل أسرة الحداد من حوران وأفرادها هم من بني لطيف وغلب عليهم لقب «الحداد» بدلا من «لطيف» في عهد نجم الحداد جد سليمان فقد كان يعمل بتعدين الحديد للأمير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان فحظي عنده ونال مرتبة رفيعة فاستمر هو ونسله من بعده يلقبون بالحداد.

ولما قدم سايمان الحداد إلى الإسكندرية تلبية لدعوة البطريك «غورغوريوس يوسف» أكرم غبطة البطريك وفادته وأقامه شيخاً على طائفة الروم الكاثوليك فللقب بالشيخ وورث أبناؤه منه اللقب (١).

أما لقب «الشيخ» المعروفة به الأسرة اليازجية فينحدر إليها من «سعد اليازجي» صاحب المنزلة السامية لدى الأمير أحمد المعنى آخر حاكم لبنان من المعنيين فقد كتب له لأن أسلافه في حمص كانوا كتاب الولاية ومدبريهم فأصاب سعد من الأمير المعنى حظوة ومكانة فكتب إليه لقب «الشيخ» لوجهته وعلمه ولزمهم هذا اللقب بعد ذلك (٢).

٢- حياة نجيب الحداد

ولد ببيروت في الخامس والعشرين من شهر فبراير (٣) (شباط) سنة ١٨٦٧ فأرخ ولادته خاله حجة اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي بقوله :

(١) «الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية» لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ٨

(٢) «الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية» لعيسى إسكندر المعلوف ج ١ ص ٦

(٣) «الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية» لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ١٥ - ٢٦

تجلى هلال السعد في حسن طلعة بها الله وافانا بحسن وإحسان
نجيب نراه حيث أرخ فائقاً ولا غرو فيه إنه من « سليمان »
وفي سنة ١٨٧٣ انتقلت أسرته إلى الإسكندرية فانظم في سلك مدرسة
الإخوة (الفرير) وبقي فيها سنتين ثم تركها إلى المدرسة الأمريكية وبدأت عليه
في كليهما مخايل النجاة والنوع والذكاء .

ولما اندلعت نيران الثورة العربية في سنة ١٨٨٢ عاد مع أسرته
إلى بيروت وأكمل علومه في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك وتلقى
آداب اللغة العربية وفتونها على خاليه الشيخين خليل وإبراهيم اليازجي
فبلغ منها في زمن قصير مبلغاً عظيماً دل على أنه من تلك النجاة اليازجية .

وفي سنة ١٨٨٣ عيّن أستاذاً للغتين العربية والفرنسية في مدرسة بعلبك وما
إن يقضى فيها عاماً واحداً حتى يعود إلى الإسكندرية ملبياً دعوة سليم نقلا
صاحب جريدة الأهرام فانضم إلى كتابها واستمر يكب فيها مؤلفاً مترجماً
زهاء تسع سنوات^(١) . وفي سنة ١٨٩٤ أنشأ هو وشقيقه الشيخ أمين الحداد

(١) ورد في « تراجم مشاهير الشرق » لمرجى زيدان أن المترجم له « جاء الإسكندرية
بعد الحوادث العربية فتولى التحرير في جريدة الأهرام إلى عام ١٨٩٤ » وورد في « الفرر التاريخية
في الأسرة اليازجية » ليسى إسكندر المفلوح ج ٢ ما يلي :

« وفي سنة ١٨٨٤ استقدم إلى الإسكندرية لتحرير جريدة الأهرام لسليم بك نقلا وبقي فيها
تسع سنوات إلى سنة ١٨٩٤ » وورد في مقال طانيوس عبده المنشور في ذيل ديوان نجيب الحداد :
« ثم استدعي إلى جريدة الأهرام للمساعدة في تحريرها فكتب فيها عشر سنوات . » وقال حنا سركيس
في ترجمته لنجيب الحداد المنشورة في المجلد الأول من مجلة « الضياء » : « حتى استدعته جريدة
الأهرام بالإسكندرية ليكون من منشئها وهو في الخامسة عشرة كما أسلفنا فوق المنشئ الأول فيها
مدة اثني عشرة سنة بلا انقطاع ثم فارقتها وأنشأ جريدة لسان العرب . » أما كتاب « جريدة الأهرام »
للككتور إبراهيم عبده فيقول : « ثم جاء في فبا آخر أن نجيب الحداد قد انتظم في هيئة تحرير
الأهرام » ويحيل في الهامش إلى « الإهرام في ٣ نوفمبر ١٨٩٣ » مع أن الدكتور إبراهيم عبده عندما
يتكلم في كتابه على نصيب جريدة الأهرام من الدعوة لحقوق المرأة بأقلام « مصاحف » الجريدة أو محرريها
يشير إلى مقال في هذا الموضوع نشر لنجيب الحداد في الأهرام بتاريخ ٢٨ من أبريل سنة ١٨٩٣
هذا والأهرام في السنوات العشر أو التسع السابقة لانتظام الحداد في هيئة تحريرها على ما تشير
إليه مملوءة بآثاره فهل يفهم من هذا كله أنه كان يكتبها وأنه إنما انتظمت هيئة تحريرها في الثاني
من نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

وعبدَه بدران جريدة «لسان العرب» اليومية وكان هو رئيس تحريرها فقضت حال الصحافة بوقف الجريدة فجاء إلى القاهرة وأصدرها مجلة أسبوعية أدبية اجتماعية .

ثم حنّ ثانيةً إلى الإسكندرية فنقل إليها «لسان العرب» وأنشأ هو وغالب طلبات جريدة «السلام» اليومية السياسية وتولى الكتابة في مجلة «أنيس الجليس» لصاحبها الأميرة ألكسندرا أفرينو وهي مجلة شهرية فكاهية نسائية أنشئت في أوائل سنة ١٨٩٨^(١) فكان يكتب في هذه الصحف كلها وكان إلى هذا لا ينقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات الأخرى ولا عن التأليف والترجمة ونظم الشعر حتى أضناه العمل والكفاح فأصيب بذات الرئة فلم يمهله الداء طويلاً فعادت نفسه إلى بارثما ونجا ذلك الشعاع الساطع في اليوم التاسع من شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ وليس لصاحبه من العمر غير اثنين وثلاثين ربيعاً فنعتة الصحف في حزن وحسرة وأقيم له مأتم حافل بكاه فيه الأدباء والشعراء ولعلّ أصدق ما بصوّر حياته الكادحة الجاهدة هو مطلع مراثية خليل مطران حيث يقول

(١) «عاشت "مجلة أنيس الجليس" عشرة أعوام ونالت من الصيت البعيد ما لم تنله مجلة نسائية سواها قبل ذلك العهد وحسبنا برهاناً على ذلك أنها كانت تقرأ في قصور السلاطين والملوك والأمراء والأعيان في جميع البلاد الشرقية ولذلك فإن منشئها السيدة ألكسندرا أفرينو أحرزت جاهاً كبيراً وذكرها مستطاباً في عالم الصحافة والأدب . وأحرزت كذلك مكانة رفيعة لدى الملوك والسلاطين . ففي عام ١٩٠١ منحها مظفر الدين شاه إيران لقب "كوكب الشرق" وأنشأ لأجلها وصاماً خاصاً بالنساء أنحفها به مع رسمه موقعاً بخطه وفي تموز ١٩٠٣ شهدت حفلة السلامك الهمايوي بالآستانة فأتم عليها السلطان عبد الحميد بوسام الشفقة من الدرجة الأولى وهو مرصع بالحجارة الكريمة . ولما التأت جمعية "السلام العام" سنة ١٩٠٠ في باريس انتدبت ألكسندرا لتمثيل سيدات مصر فيها . فأنشأت حينئذ لمصر راية سلام خصوصية جعلتها تحقّق بين رايات سائر الدول وكانت الأميرة فيزيونسكا الإيطالية رئيسة تلك الجمعية فتدربت ألكسندرا إليها وحظيت بصداقتها وثقتها ولم يكن للأميرة فيزيونسكا أولاد يرثون عنها نتبها الشريف فأعلنت في وصيتها الأخيرة عن رغبتها في أن ينتقل لقب الإمارة بعد وفاتها إلى السيدة ألكسندرا مع الحق بتسلسل هذا النعت الشريف في ذريتها من بعدها ... وللأميرة صاحبة "أنيس الجليس" مآثر أدبية شتى فإنها عربت رواية "شقاء الأمهات" ونظمت القصائد البديعة في مواضيع مختلفة . وطبعت ديوان الشيخ نجيب الحداد ومراثيه اعترافاً بفضلها على مجلتها التي كان هو وأخوه الشيخ أمين يحوران فيها . وطبعت على نفقتها ديوان "شعر النحلة" فقرظها ناطمه الدكتور لويس صابونجي

(تاريخ الصحافة العربية «للفيكت فيليب دي طرازي ج ٤ ص ٣٢٦ و ٣٢٧)

اربأ بنفسك أن تكون نجيباً وازجر خليلك أن يكون أدبياً
فلقد أرى موت الأديب حياته والعيش موتاً يلتقيه ضروباً

وأرّخ وفاته على عادة العصر كثير من الشعراء كان منهم خاله الشيخ إبراهيم اليازجي وهو الذي كان قد أرّخ ميلاده فقال في تأريخ وفاته أبياتاً ختمها بهذا البيت :

فصغت بيتاً من التاريخ قلت به قدمات بعد «النجيب» الشعر والأدب (١)

٣ - صورته الجسمانية والنفسية

صوّرها لنا طانيوس عبده صديقه الحميم فقال : « أما صفاته فهو ربعة القامة حنطى اللون كثير التصور حادّ الذهن سمح البديهة حتى إنه قد يرتجل القصيدة الطويلة على نفّس لا يقطعه وإذا اقترحت عليه الكتابة في موضوع فهو يسبق جنانه اللسان ويعدو قلمه البنان وهو طاهر القلب عفّ الضمير مهذب الأخلاق لطيف المحاضرة فصيح الكلام فإذا تكلم أنصتت إليه الأسماع وشربت حديثه العذب كل الطباع » .

ذلك كلام خدن له وصديق عرفه عن كُتّب فقدهم إلبنا ورسم له هذه الصورة ولا يصعب على من يلتمس له الصورة النفسية في آثاره الأدبية ما بين شعر ونثر أن يؤمن على هذا الكلام ويمجد فيه مصداق ما يرسمه الذهن في لوح الخيال من صورة ذلك العبقريّ ولكنه يجد مع ذلك في الصورة المرسومة بقلم صديقه بعض جوانب ناقصة لعله شاء أن يتركها للمؤرخين والباحثين من بعده . ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لنجيب الحداد قلنا إن الرجل كان رقيق القلب إلى أبعد حدود الرقة ، وكان صاحب نفس متألمة معذبة .

(١) تجد ترجمة نجيب الحداد في مصادر عدة أهمها : « الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ و « تراجم مشاهير الشرق » لبرجى زيدان ج ٢ و « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو و « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود . ومقال لطانيوس عبده منشور في ذيل ديوان الحداد ومقال آخر لحننا سركيس منشور في المجلد الأول من مجلة « الفضيّاء » وفي ذيل ديوان الحداد .

فرقة قلبه تتمثل في إنسانيته وتسهيل على شباة قلمه سيولا من ذوب الفؤاد فإذا قرأته مال قلبك إليه وأحبيته وانعقدت بين قلبك وقلبه الحى النابض مودة أو أصرها من نسج السماء ولا عجب فرقة الحواشى تأسر أقبى القلوب فما بالك إذا سرت في حنايا الشعر الرقيق إنها تكون عندئذ السحر الذى لا يدفع ولا يقاوم . وعذاب نفسه كذلك واضح بين وليس عذابه منبعثاً من شك يساوره في أمر الروح والمعاد فالرجل موحد مؤمن مسلم بما أنزله الله من ألواح وشرائع فهو في هذا صاحب نفس مطمئنة مهدية تؤمن بالله وباليوم الآخر أفيكون إذن عذاب نفسه ناشئاً من حبيب هاجر أو صديق غادر أو عمل خاسر أو ما شاكل ذلك مما تزخر به الحياة ويميز البشر . كلا . فإن عزيمة الرجل وذكاءه ومعرفته بطباع الناس كفيلا أن تلطف من نفسه جرح الخيبة والإخفاق وأن تخفف عليها وقع الهجر والغدر فقيم إذن عذاب نفسه . إننا لنلمسه في الصيحة الخالفة والزفرة المكبوتة تريد أن تنبعث وتنطلق مدوية متفجرة ولكن يكتمها ويضبطها ذلك المعدن من النفس السامية التي تستعلى على البوح والإفصاح فيحملها الوعى الباطن إلى دنيا الناس مبثوثة على صفحات معانيه وخواطره كلما وجدت السبيل إلى أن تشق آية الحجاب وتبرز لبصائر الناس .

كان عمر نجيب الحداد قصيراً قصر عمر الورد والريحان واكنه ملأه مع ذلك بجلائل الأعمال وحوافل الهمم وكانت نفسه تشعر في مراحل حياتها أنها ستحيا غريبة معذبة في هذا الوادى وادى الدموع وأنها ستحمل فيه ما تنوء بحمله رواسى الجبال فتزفر زفرتها الأولى في صباح العمر وتقول :

سأقدم ما أبقى لى الدهر همةً وأركب في متنيه كل ركوب
لعل اجتهاد النفس يعقب راحةً فتسكن أو يأتى لها بكروب^(١)

وتزفر عند غروب العمر الزفرة الأخيرة مودعة حزينة مصورة ذلك العذاب الذى طعمته وتغذت به في الحياة فتقول :

إن قلباً معذباً نثرته أسهم الدهر كيف ينظم شعرا
لم تبق لى المصائب إلا قلماً كسرهُ أحق وأحرى

(١) كأنه كان على مذهب امرئ القيس القائل : « نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا »

كنت أرجوه للخطوب فأضحى
وغيءا حبره يخط سطوراً
لى أمضى سهامها حين يبرى
تجئليها عيني دماء حُمرأ
ما يرجيه كاتب من يراع
لم يكن فى الذى يرجيه حرأ

ويخيل لينا أن هذا الشطر الأخير هو صورة حياته كلها وسرّ عذابه كله . لم يكن فى الذى يرجيه حرأ مع أنه كان حرأ فى عقيدته ومذهبه ومبادئه حرأ فى الأمثلة العليا التى وقف نفسه للذود عنها وتمهيد سبل الناس إليها فأين إذن الأغلال والقيود التى كبّلته وعاش تحزّ فى نفسه ويتزّى فى قضبانها .

أدرك نجيب الحداد أن الله خصّه بنعمة سماوية هى ملكة الشعر وموهبة البيان وأدرك بثاقب فكره وساطع ذكائه وهو بعد فى شرح الشباب أن الحياة ستضع العقبات فى سبيل ملكاته وحرّيتها فتألم ثم قضى العمر متعراً بتلك العراقيل فتعذب وكان كلما أراد أن يخلق بموهبته المجنحة شدّته إلى الأرض أفضال العيش وأوقار^(١) السعى فى الرزق فخضع وأذعن على ألم ومضض وذهبت نفسه حسرات . أوليس من عذاب النفس أن يعتمد الشاعر قيثارته ليهزج ويتغنى ويخاطب سكان السماء ويخلق فى جواء السحر والفتنة وفضاء الوحى والإلهام فتحول دونّه مطالب الأرض فيجيبها صاغراً عن يد^(٢) .

(١) الأوقار : جمع وقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل

(٢) ومثل هذا العذاب النفسانى لقيه أيضاً أخوه الشيخ أمين الحداد فقد جاء فى مذكراته : « أنا الآن فى نحو الساعة والثلاثين من عمري وصناعتى الإنشاء والتحرير فى جريدة " البصير " ومجلة " أنيس الجليس " ، ولكنى أكتب فى كليهما بدون توقيع وإنى شاعر أيضاً والشاعر ضنين بمجده مفتون بكلامه ولكنى مع كل هذا أتعمد ذلك الخلق بالنسائل فلا أوقع على نظمى بل أهيه لسواى كثيراً ولو كان جيداً أشرف به وإنما أفضل هذا فى مجلة " أنيس الجليس " خاصة لأن صاحبها هى ألكسندرا أفريبنو وهى امرأة بارعة الجمال ولكن ليس لجمالها سلطان على بالإطلاق بل أهيا ذلك فى نظير ما تهيه من أجرة وفى نظير ما ينبنى من الرجل للمرأة . أما دل سلطانها لى فلشدة اتلافى بها إلى حد الأخوة ولكونى فى شغل شاغل عن الحسن من خلق ومن هموى ونيل فى دنياى أقل من استحقاقى » (منتخبات أمين الحداد ص ٤)
وأمّن على هذا صديقه حنا سركيس إذ قال :

« . . . فقد ذكر عند كلامه عن " أنيس الجليس " أنه كان يكتب فى نظير الأجرة التى كان يتناولها وهو قول وإن كان صحيحاً ولكن الأصح منه أن وفاهه الشديد لصاحبة الأنيس وبقائه على خدمتها إلى آخر أيامه إنما كان من قبيل الاعتراف بالجميل الذى صنعتة مع أخيه نجيب أيام اعتقاله وموته » (منتخبات أمين الحداد المقدمة ص ع)

وهكذا شغل نجيب الحداد حياته بصفحات يسودها فراراً من عيشه الأسود وبموضوعات تقترح عليه فيلبّيها سماحة وكرماً وبواجبات اجتماعية يقسر عليها فيكون عند حسن الطمع فيه والرجاء وهو لو عاش لموهبته وفنه وخصّ بهما فراغه ولا نقول وقته لغرّد وجاء بالمعجزات .

على أنه مع أصفاده وأغلاله قد أنشد وغرّد وترك لنا هذا التراث القليل الجميل الذي سيبقى في الصالحات الباقيات ولكن أى جريمة ارتكبها القدر في إرهاقه بتكاليف الحياة وتأليب الأدواء عليه حتى ختم الله على عذابه فانطلق إلى حيث يشبع نفسه تسبيحاً وتغريداً .

٤ - تأثيره وتأثيره

الإنسان كالحیوان ابن الوراثة والبيئة فالوراثة تزوّده ببعض الخصال والطبائع والشيم وتعدّه لجوانب معینة فی الحياة وتقوده إلى مبادئ خاصة من النشاط والسلوك كما أن التربية والبيئة تنميان فيه الملكات الموروثة وتساعدانه كذلك على اكتساب خلائق جديدة فقوى الإنسان الذهنية إذن موهوبة ومكسوبة والسعيد من الناس من جمع الخاتين^(١) .

فالوراثة تتحكم في الخلق والخلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها وليس لهم منه في الأعم الأغلب مناص ولا فرار . . .

والوراثة الجسدية هي التي تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات في القبح والجمال .

ووراثة الغرائز لا تنقل شأناً عن الوراثة الجسدية فهي تفعل فعلها ولا تحيد عن قانونها .

كذلك وراثة القوى العقلية فإنها تسير على غرار واحد هي ووراثة الصفات الجسدية والغرائز فالذكاء والبله والخطرة والدعة والعبقرية والغباء والفضائل والذائل تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف في الأسرة

الواحدة حتى لتطبع كل أسرة بطابع خاص من تلك القوى والصفات .
ولنا في التاريخ القديم والحديث أمثلة حيّة لهذا النظام العجيب فالخطابة
مثلا كانت الطابع الذي عرفت به أسر « هرتنسيوس ^(١) Hortensius »
و « كوريون ^(٢) Curions » ذكوراً وإناثاً والشعر كان الصفة الغالبة على
أسرة زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي كما كانت الجرائم من خصائص
آل « برجيا ^(٣) Borgia » والطغيان من شيم آل « فسكنتي ^(٤) Visconti »
وحب السلطان من أخلاق آل « مدسيس ^(٥) Médecis » والعناد والخيلاء من
خلال آل « ستورت ^(٦) Stuart » والكبر وحب الكفاح والشجاعة من طبائع
آل « جيز ^(٧) Guise » والشعر والعلم والأب في القرن التاسع عشر من مميزات
كثير من الأسر الشرقية العربية نعدّ منها آل اليازجي وآل البستاني وآل الحداد .
وربما تنكبت الوراثة في تسلسلها الخط الموصول فاستكنت جيلا أو أكثر
بل ربما توارت قروناً عدة قبل أن تنقل سمات العبقرية من فرد إلى فرد في
الأسرة الواحدة ^(٨) .

ذلك عمل الوراثة أما عمل البيئة فعمل القيسن الذي يجلو فرند السيف أو
عمل الجوهرى الذي يصقل الدر ويتقبه أو عمل الصانع الذي يصنع من خسيس

(١) عميدهم « كنتوس هرتنسيوس Quintus Hortensius » (١١٤ - ٥٠ قبل الميلاد)
خطيب روماني شهير كان خصم شيشرون ثم صديقه .

(٢) عميدهم « كايوس كوريون Gaius Curion » (٥٢ - قبل الميلاد) خطيب روماني
عظيم تقلب في مناصب الدولة وألب الجمهور على قيصر .

(٣) آل برجيا أسرة إيطالية من أصل إسباني وكان أشد أفرادها قسوة وجرائم « قيصر برجيا
César Borgia » فقد كان سياسياً ماهراً ولكن مرائياً غليظ الكبد اقرّف جرائم عدة ومات سنة ١٥٠٧
ونقد اتخذها « مكيافل » مثالا في كتابه « الأمير » .

(٤) أسرة إيطالية شهيرة اغتصبت عرش ميلانو وحكمت من سنة ١٢٧٧ - ١٤٤٧ .

(٥) آل مدسيس هم أمراء فلورنسا بإيطاليا وقد عرف منهم لوران الأول برعايته للآداب
والفنون وحماتها (١٤٤٨ - ١٤٩٢) .

(٦) أسرة إسكتلندية كبيرة كان منها كثير من ملوك إسكتلندا وإنجلترا .

(٧) أسرة فرنسية شهيرة عميدها « كلود دي لورين Claude de Lorraine » نصر فرنسوا
الأول على شركان .

(٨) طالع في هذا كتاب : Hygiène et Physiologie du Mariage, par A. Debay

المعادن أشكالا من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة في صقل المواهب أو في التخلّيق بأخلاق معيّنة أمر مسلم به حتى لقد تسرّب هذا القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين : « قل لى من تعاشر أقل لك من أنت » وحتى ذهب الفيلسوف الفرنسى « تين » إلى القول إن قيمة الإنسان من قيمة البيئة التى يعيش فيها بل ذهب إلى إرجاع كل عمل أدبى أو فنى إلى عناصر ثلاثة هى العرق والبيئة والزمن .

ومن أطرف الأدلة على تأثير البيئة ما رواه محبى الدين بن عربى قال : « حكى لنا بعض الأدباء عن ابن الجهم وكان بدويًا جافياً لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التى يقول فيها يخاطب الخليفة :

أنت كالكلب فى حفاظك لآود^١ وكالتيس فى قراع الخطوب
أنت كالدّاء لا عدمنك دلوًا من كبار الدّلاء كثير الذّنوب^(١)

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه وعرف أنه ما رأى سوى ما شبّهه به لعدم المحالطة وملازمة البادية فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح والجسر قريب منه وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به وكان يركب فى أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ولطافة الحضر ويرجع إلى بيته فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده فحضر وأنشد :

عيون المها بين الرّصافة والجسر جابنّ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

فقال المتوكل : « لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة . »^(٢)

ومهما يكن من شأن هذه القصة واختلافها بين الحقيقة والخيال وسواء

(١) من معانى الذنوب : الدلو والحظ والنصيب .

(٢) ديوان عل بن الجهم بتحقيق خليل مردم وقد نقلت هذه القصة فيه عن « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » لمحبي الدين بن عربى ٢ - ٣ ويرى محقق الديوان أنها قصة خيالية يظهر عليها الرضع وأن البيتين إن صحت نسبتهما لعل بن الجهم فإنما يكون قائلهما فى أحد مجالس المتوكل يمث بعض الندماء أو المضحكين . (ص ١١٧ من الديوان) .

حدثت بحضرة الخليفة أم لم تعرفها مجالسه فإنها لا تعدو أن نكون مثلاً لتأثير البيئة في قريحة الشاعر فمن البداهة أن يتناول البدوى عناصر تشبيهاته من بيئته البدوية حتى إذا سكن الحضر ووقعت عينه على مجالى الحضارة فيه تأثرتها نفسه واستوحى عناصر التشبيه من بيئته الجديدة .

* * *

ونجيب الحداد ابن الوراثة وابن البيئة وابن العصر .

فأبوه سليمان الحداد أديب شاعر ترعرع مع أبيه جرجس في دار الأمير بشير الكبير الخافاة بالأدباء والشعراء وله في النثر والشعر آثار طيبة منها ديوانه المسمى « قلادة العصر » . وأم نجيب الحداد هى ابنة العلامة الكبير الشيخ ناصيف اليازجى وهو من هو وأخواله الشيوخ حبيب وخليل وإبرهيم اليازجى أدباء علماء شعراء كان لهم الأيادى البيض على الآداب والعلوم وخالته هى الشاعرة الشهيرة وردة بنت ناصيف اليازجى فهو إذن من دوحة تمت بعروقها وفروعها إلى الأدب والعلم والشعر .

وأكثر من ترجم لنجيب الحداد ذكر أنه ترعرع في بيت علم من جدّه لأبته اليازجى الأكبر وأخواله والده . . . وتلقى آداب اللغة العربية وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبراهيم اليازجى^(١) وأنه روى في مهد الأدب وورث ملكة الشعر من جدّيه ورضع لبان النظم والنثر من خاليه وتلقى بعض العلم عنهما ولكنه فطر على الأدب منذ نعومة أظفاره فنظم الشعر قبل أن يدرك الحلم^(٢) . فالوراثة كانت عاملاً كبيراً في موهبته اللدنية سهلت من عمل البيئة وساعدتها في صقل الموهبة وتجليتها فانبثقت وبزغت وضّاحة مشرقة .

ولقد كان للبيئة أثرها الفعال في تنمية ملكة الشعر في نجيب الحداد وإعداد نفسه لتلقى الآداب والعلوم .

فأول ذلك الأثر أنه غاش في بلدين وهبما الله قسطاً وافراً من الجمال فقد قضى القسم الأول من طفولته وردحاً قليلاً من شبابه ببيروت ولبنان فانطبعت في نفسه صور حياة من زرقة البحر وزرقة السماء ومن هدير الأمواج وسبحات الكواكب

(١) « الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المفلوف ج ٢ ص ١٥

(٢) « تراجم مشاهير الشرق » لجرى زيدان ج ١ ص ٢٣٦

كما انطبعت فيها صور فاتنة من مشارف لبنان وهضابه ومن أوديته وبنابيعه ومن غاباته وحدائقه وشاء له القدر أن يتمّ طفولته وحدائمه ثم شبابه كله في ثغر الإسكندرية الجميل فتستكمل في نفسه صور البحر الزاخر والموج المتلاطم وألوان السحب المنعكسة على صفحات الماء الواحاً متباينة الألوان متعددة المفاتيح وتكمل في جوانحه صورة الجبل في تلعاته وريوده بصورة السهل في بطاحه المنبسطة وسواقيه المتغنية وزراعاته الخصبه مما تقع عليه النفس والعين في الريف المصرى الجميل الوادع فضلاً عن حدائق الإسكندرية الملتفة الغصون والأوراق والمقنوشة بمختلف الأزهار والرياحين وبله شواطئ الإسكندرية الجميلة في هوائها البليل ونسيمها العليل ورمالها الناعمة يحمل إليها الموج دقائق الزبد فتغسل الرمال بها وتنشّف بنسيج الشمس فتلتمع وتتألق لمعان التبر وتأتق الذهب . وتتعاقب عليه آثار البيئة في جوانبها العملية فيتمسّر له الدراسة المنتظمة في مدارس لبنان والإسكندرية وتخصّه بنعمة كبيرة إذ تمنحه المعلم الماهر والأستاذ الكفى ولا ريب أن المهوبة الفطرية إذا تعهدتها عناية المرّبي القدير أزهرت ثم أينعت في وقت قصير فقد كان من نعم الله على نجيب الحداد وعلى الشعلة المقدسة المتأججة في صدره أن تذكى ضرامها نفاتح خاليه العلامتين الشيخين خليل وإبرهيم اليازجى فتلقى العلم عن مثلهما اختصاراً للزمن أى اختصاراً وعدول عن الجدول إلى النوع القوّار الفياض .

ولقد عرفتُ أدباء عرفوا الشيخ إبراهيم اليازجى واختلفوا إليه يزورونه لماماً فكان لهم من تلك الزورات أجزل النفع فأخذوا عنه الفوائد والفرائد واستبانتم لهم سبل اللغة والأدب معبّدة موطّأة فمشوا بها خبياً إلى غاياتها . وعرفت كذلك أدباء عرفوه بأثاره فانكبّوا عليها يستوعونها استيعاباً فكانت لهم نعم المرشد ونعم الهادى إلى ذخائر اللغة والأدب وكنوزهما فما بالك بمن يتلقى العلم على يديه مشافهة ويجلس إليه أياماً متتابعة وأشهرأً موصولة إنه لا بدّ بالغ من أمنيته مبلغاً عظيماً وهكذا كان شأن نجيب الحداد فقد عبّ من المناهل اليازجية فساعده على دراسته الخاصة وعلى الضرب في مناكب الزمن طائفاً بمحذات العرب يقطف منها ويحنى أنضر الرياح وأينع الثمار .

وقدر الله كذلك لنجيب الحداد أن يعيش في بيئة أدبية يحفّ فيها

بالأدباء ويحتمون به فالصحافة في عهده كان قد نبه شأنها واستقام أمرها وسارت تؤدى رسالتها فكان من حماة اللواء فيها ولم تكن الصحافة في عهده غريبة عن الأدب بل كانت فرعاً منه ولئن أصبحت اليوم علماً قائماً برأسه له فنه وأصوله وقواعده إن الأدباء لا يزالون أنجح الصحفيين فالأدب يقوم من الصحافة مقام الروح من الجسد وحياة كل عمل مستمدة من الروح المتردد في ضلوعه وحنياه . وما كانت بيئة نجيب الحداد مقصورة على الصحافة وعلى الأدب المتفرع عليها بل كانت إلى ذلك بيئة أدبية خالصة قوامها الشعر ينظمه في الدواعي التي تهز قريحته وشاعريته وقوامها النثر يستخدمه في مقالاته المختلفة الأغراض والمباحث وقوامها الشعر والنثر معاً يفصلهما بروداً قشبية لروائع المسرح حتى نهض المسرح نهضة مباركة وكان الحداد فيها دعامة من أقوى الدعائم .

وبيئة نجيب الحداد بيئة عربية مصرية لبنانية تأثرها وأثر فيها وعاش في تلك البيئة معتمداً على تراث ضخم من أدب العرب وبلاغتهم يستند إليهما في شعره ونثره ليجلو المعاني القديمة مسبوكة في قالب جديد أو ليجلو المعاني العصرية يستلهمها أدب العصر وحضارة العصر فاختلف نثره بين السجع والترسل ونسج في الشعر على منوال شعراء الرقة في العصر الأموي وصدر العصر العباسي . على أن تلك البيئة العربية الخالصة لم تكن بمعزل عن المؤثرات الغربية فحملة تمكنه من اللغة الفرنسية إلى ترجمة ذلك العدد الكبير من الروايات والتثنيات وحمله على أن يتأثر البيئة الفرنسية ولو عن بعد ناقلاً منها إلى بيئته العربية آدابها ومعارفها بل حوادثها وأخبارها وما من شك في أن شاعريته قد طافت بشعراء تلك البيئة ممن عاش في القرن التاسع عشر أو عاش في القرون السابقة فلقى الظل الظليل عند «كورنای» و«راسين» و«مولير» من أصحاب المدرسة القديمة ووجد متعة الخيال الخصب والقصص التاريخي عند «دوماس» كما وجد التجاوب الروحي عند «هوجو» و«لامرتين» و«دوسه» من أصحاب المدرسة الحديثة فنقل ماشاء له أن ينقل من آثارهم . بيد أن شاعريته تأثرت «لامرتين» تأثراً خاصاً ولعل نفسه المعذبة وجدت في زفوات «لامرتين» رجع نواحيها فهلت من مدامع الشاعر الفرنسي وظهر أثر ذلك الرى على صفحات شعر الحداد بارزاً في بعضها متوارياً وراء حجب النفس في بعضها الآخر .

وكان نجيب الحداد إلى ذلك كله ابن العصر الذى عاش فيه فقد اشترك فى حوادثه وأحداثه وشارك فى نزعاته وأمياله وراقب وسجّل أطواره وأمواج حركاته فنزل من عصره فى الصميم متميزاً بالعاطفة الصادقة والسريرة الصافية والخلق القويم والقلم العفّ والنفس التى تسامر مواكب العصر فتقبل فى الحياة وفى الأدب كل طريف جديد لا يندّ عن الأخلاق والعادات العربية ولا يشذّ عن بلاغة الضاد .

وكان من الطبيعى أن تنعكس على الأدب أنوار المدنية الجديدة فالأدب روح العصر وصورته فبرز نجيب الحداد فى طليعة المجددين يستوحى آيات العصر ويصوّرها شعراً ونثراً فى أطرفٍ من البلاغة العربية والبيان الرصين .

أما تأثيره الخلقى فى محيطه فكان على أعظم جانب فقد ظفر من محبة الناس وإجلالهم بما لا يظفر به منهم إلا أصحاب النفوس الرفيعة والقلوب الكبيرة وأصحاب الخلق الذى لا يمتّ إلى أخلاق أهل الأرض بسبب وإنما يمتّ إلى أخلاق الملائكة وخلال الملائ الأعلى ولقد صوّرت لنا ذلك الأثر أقلام إخوانه من الأدباء يوم رثوه وأبتنوه ذارفين عليه الدمع السخين ويوم كتبوا عنه وترجموا له ملتزمين فيه جانب المؤرخ الصادق .

وأما تأثيره الأدبى إبان حياته وبعد وفاته فكان واسع الأثر ممتد الأفق يقفنا عليه تهافتُ الناس فى عصره على مطالعة آثاره وشهود تمثيلياته « حتى أصبح يتغنى بشعره المنشدون ويتناشده الناس لما اختصّ به من الطلاوة والسهولة والإبداع ولذلك فقد بعد صيته وانتشر شعره فى جميع أرجاء القطرين المصرى والسورى انتشاراً لم يسبق لسواه من مشاهير الكتاب . . . وله فى جريدة "لسان العرب" المقالات الرنانة التى بلغ دويّتها جميع أنحاء هذا القطر ودلت على مكانته العليا من البلاغة فى عالم الإنشاء فزادته شهرة على شهرته الواسعة وأقبل القراء عليها من كل صوب لما باغت إليه من بعد الصيت بفضل هذا المنشئ البليغ وقد أدرك سرّ بلاغته من قرأ كلامه من الملوك فأهداه سلطان زنجبار رحمه الله وسام الكوكب الدرّى من الدرجة الثالثة مكافأة له عما بذله فى خدمة العلم وحضر بعض رواياته الدون "كارلوس" الذى ملك جانباً من إسبانيا وهو مطالب بعرشها الآن عند تجواله فى القطر المصرى فأهدى إليه دبوساً من اللؤلؤ

الثمين وبعث إليه برسمه وقد كتب عليه بخط يده كتابة تدل على شدة اعتباره لهذا الروائي الشهير . « (١) »

تلك شهادة عشير له هو الشاعر النائر المرحوم طانيوس عبده نستدل منها على أدب نجيب الحداد وأثره في عصره .

ثم يحطم القدر ذلك القلم الرهيف الذى يمجّ سنانه الشهد وذوب العطر وتأخذ الحميّة والوفاء وقدس الذكرى بعض خلصائه فيطبعون ما اجتمع لديهم من شعره وكان هو في أخريات أيامه قد شرع يجمعه ويرتبه (٢) ويجمعون له من مقالاته « منتخبات » وينهضون إلى طبع بعض رواياته فتقبل الناشئة ويقبل الشباب ويقبل القراء عامة على تلك النفائس يتغذون منها في جشع ونهم .

وحسبنا دلالة على ذلك قول شيخ من شيوخ الأدب اليوم هو الأستاذ مارون عبود متعه الله بالعمرم الطويل فقد كان هو وكثيرون غيره ممن تأدب في ريعان الصبا على نجيب الحداد وجعلوه في عداد الأئمة الذين أخذوا عنهم واقتدوا بهم قال : « . . . كان للمقالة الشأن الأول في فجر النهضة ولهذا نرى أثر الشدياق وإسحق ظاهراً في جميع من أتوا بعدهما فقد كان يوصينا أساتذتنا بقراءة مقالات هؤلاء وخصوصاً درر الأديب ومنتخبات النجيب فكان هذان الكتابان في قماطرنا - طبقاتنا - إلى جانب نهج البلاغة نطل نهيل منها ونعلّ حتى نخرج من قاعة الدرس جارّين المذيل تيباً كالنعلبي . . . لنجيب منتخبات طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها كانت مثالا لنا في ذلك الزمن نطبع على غراره . . . ونجيب الحداد شاعر مطبوع وله ديوان كنا نقتله مدراسة فظوف به من الجلد إلى الجلد مرات . . . (٣) »
وشهد شاهد من أهلها . . .

(١) مقال طانيوس عبده في ذيل الديوان .

(٢) يستفاد من كلام السيدة ألكسندرا أفرينو ناشرة الديوان أن الديوان لم ينتظم شعر نجيب الحداد كلاء ثلاثة أرباعه متفرق في رواياته الكثيرة ولا يصح أن ينتزع منها بل سيطبع معها ويستفاد أيضاً من كلامها أن هناك قصائد ومقطعات بين أيدي أسدقاء الحداد الكثيرين دون أن يجعل نسخاً منها عنده فالتسبها منهم بالسنة الجرائد والكتب فجاءها منها شيء أودعته الديوان وبقيت أشياء .

(٣) « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود ص ١٥٠ - ١٥٣ .